
القادة الأبرار
الرسول الأعظم محمد (ص)

الرَّسول الأعظم محمّد(ص)

القَادَة الأبْرَار

الرَّسول الأعْظم محمّد (ص)

الدار الاسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الثانية

١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م



كورنيش المزرعة / بناية الحسن سنتر / الطابق الثاني
هاتف ٨١٦٦٢٧ / ص . ب : ١٤٥٦٨ تلكس ٢٣٢١٢ - غدير
فرع ثاني / حارة حريك مفرق الحلباوي / هاتف ٨٣٥٦٧٠

الرسول الأعظم محمد (ص)

الاسم : محمد (ص)

اسم الأب : عبد الله .

اسم الأم : آمنة

تاريخ الولادة : عام الفيل

محل الولادة : مكة

تاريخ الوفاة : السنة الثالثة عشرة للهجرة

محل الوفاة : المدينة

محل الدفن : المدينة .

بسم الله الرحيم الرحيم

عام الفيل

قبـل الهجرةِ بـاثنتين وخمسين سَنةً، تـوجَّهَ أَبْـرهَةُ الأشرمُ من اليمنِ بجيشٍ كبير، عمادُه محاربونَ يركبون الفِيلَةَ، توجَّهَ نحو مكَّةَ لتدميرِ بيتِ الله. وقامَ في طريقهِ إلى مكـةَ بـالقضـاءِ على كـلِّ من حـاولَ الـوقـوفَ في وجهِه.

وصلَ جيشُ أبرهةَ إلى ضواحي مكة، وكانَ الوقتُ ليـلاً، فأقـامَ مُعَسْكَرَهُ هنـاك في انتظارِ الصّبـاحِ ليشرَعَ في هُجومِهِ، بينمـا سارَعَ أهـلُ مكَّةَ إلى الجبـالِ هربـاً منـه، وأَسْلموا الكعبـةَ إلى الله، فهو سُبحـانَـهُ الكفيـلُ بالدِّفاعِ عنها، فَهيَ أوَّلُ بيتٍ أُقيمَ في الأرضِ لعبـادَتِهِ تعالى.



وفي الصَّباحِ الباكرِ. شرعَ المقاتلونَ بِهجومِهِم على الكعبةِ، يَتقدَّمُهم رُكّابُ الفِيَلَةِ، وفجأةً ظهرتْ في السَّماءِ أسرابٌ هائِلةٌ من الطُّيورِ، تَحمِلُ في مناقيرِها حِجارَةً صغيرةً، قامَتْ بإلقائِها فوقَ رؤوسِ أبرهَةَ ورجالِه، ارتفعَ صُراخُ العسكرِ وتعالى أنينُهُم وتَوجُّعُهم، وبدأوا يتساقَطون، الرّاكبُ منهم والرّاجلُ، الحصانُ وفارِسُه، الفيلُ وراكبُ الفيلِ، تساقطوا فوقَ بعضِهم أكواماً من الجُثثِ، وهكذا قضى الإلٰهُ القديرُ على أَعدائِهِ المارقين. وكان هذا الحدثُ العجيبُ وراءَ تسميةِ تلكَ السَّنةِ بـ «عامِ الفيلِ»، العامِ الذي تَمَّ فيهِ القضاءُ - وبإرادةِ العليِّ القديرِ - على فِيَلَةِ الحربِ وركّابِها، بحجارةٍ صغيرةٍ اخترقتْ أَجسادَهم، وحَفِظَ اللهُ بيتَه من عُدوانِ المُعتدين.

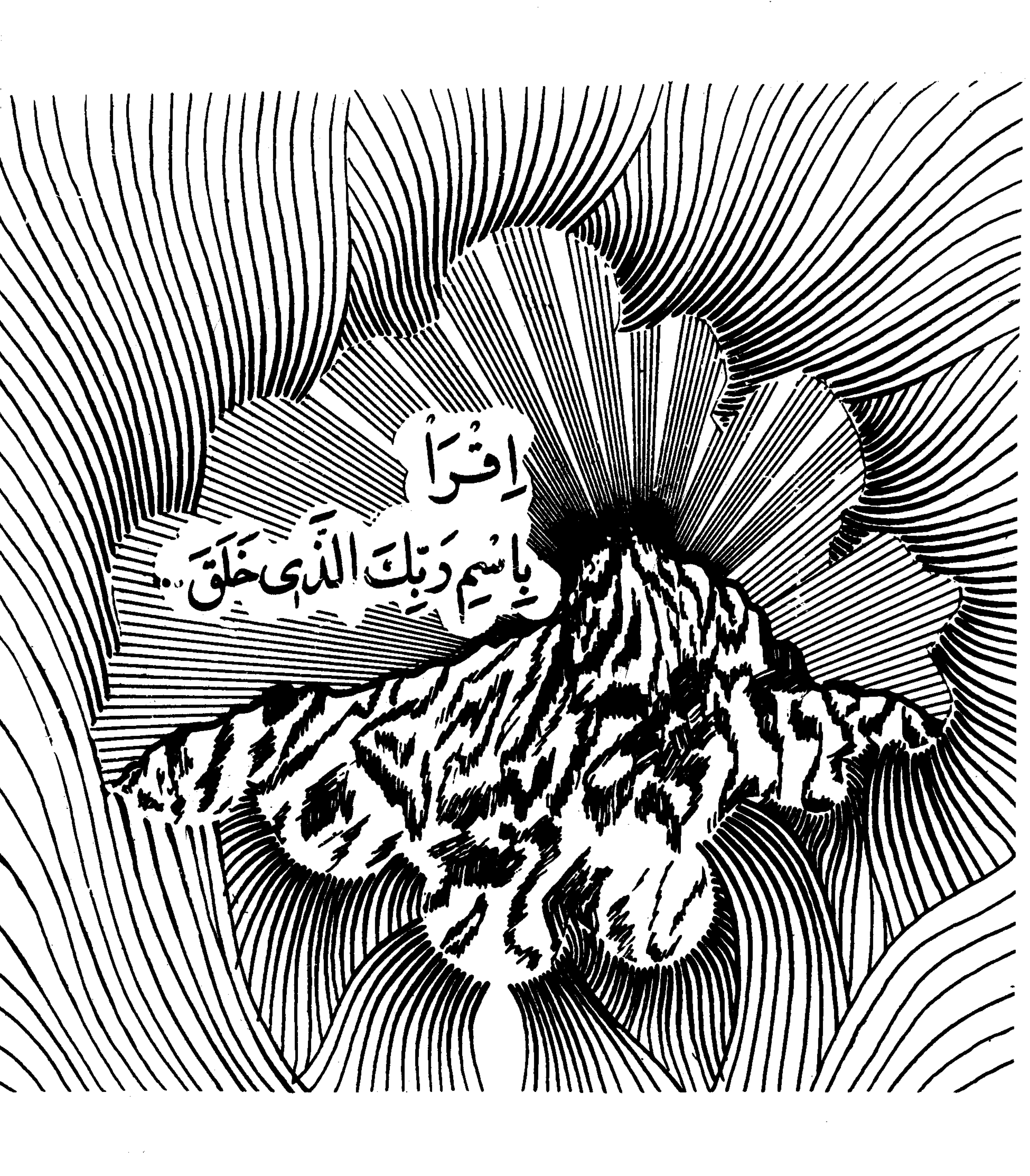
محمد الأمين :

في ذلك العامِ «عامِ الفيل» وُلِدَ الرَّسولُ الأكرمُ، لِأُمِّهِ آمِنةَ بنتِ وَهَب. وكانتْ آمنةُ سَليلةَ بيتِ الكرمِ والشَّرفِ، وقد اشْتُهِرَتْ بالسُّمعةِ الطَّيِّبةِ والطَّهارَةِ

والعَفــافِ، أمّـا أبــوه فكـانَ يُــدعى عبـدَ الله، الابنُ المحبوبُ من أبيه عبدِ المطَّلبِ (جَدِّ الرّسـولِ)، وسيِّدُ قـومِـهِ، ومَـوْضِـعُ اعتـزازِهم واحتِـرامِهم. وقـد فـارقَ عبـدُ الله الحياةَقَبْلَ ولادةِ الـرَّسولِ الأكْـرمِ (ص)، أمّـا آمِنةُ فقد انتقلتْ إلى رحمةِ ربِّها بعدَ ولادتِه (ص) بِستِّ سنواتٍ، فكَفِلَهُ جدُّهُ عبدُ المطَّلبِ، وعَهِدَ بِهِ إلى امـرأةٍ عفيفةٍ شريفةٍ، اسمُها حَليمةُ السَّعديَّةُ، لتقومَ بإرضاعِـه ورِعايتِهِ، وقد تُوُفِّيَ عبدُ المُطَّلبِ بعـدَ عامَيْنِ، فـأخذَهُ عَمُّه أبو طالبٍ إلى بيتِهِ، وتَكفلَّ برعايتِهِ وتَرْبيتِهِ.

كـانَ أبو طـالبٍ يَتعاطى التجـارةَ، وكانَ من عـادةِ تُجّـار مكَّةَ أن يَخـرُجوا بِتجـارتِهم إلى الشّـامِ مَـرّةً في السَّنةِ، ؛ وقد رافقَ مُحمَّـدٌ (ص) عمَّـهُ أبـا طـالبٍ في إحدى رَحَلاتِهِ إلى الشّامِ.

عَرَفَ الجميعُ عنْ مُحَّمدٍ (ص) أمانَتَه واسْتِقامَتَـه، حتى اشْتُهِـر بينَهم بـ «مُحمَّــدِ الأمين». ولمّـا عَلِمتْ خَديجةُ باسْتِقامتِهِ وأَمانتِهِ، وكانتْ منْ أشرَفِ نساءِ مكَّـةَ وأكثَرِهنَّ ثَراءً، سَلَّمتهُ أعمالَها التِّجاريَّةَ، فاكْتَسَبَ خِبرَةً

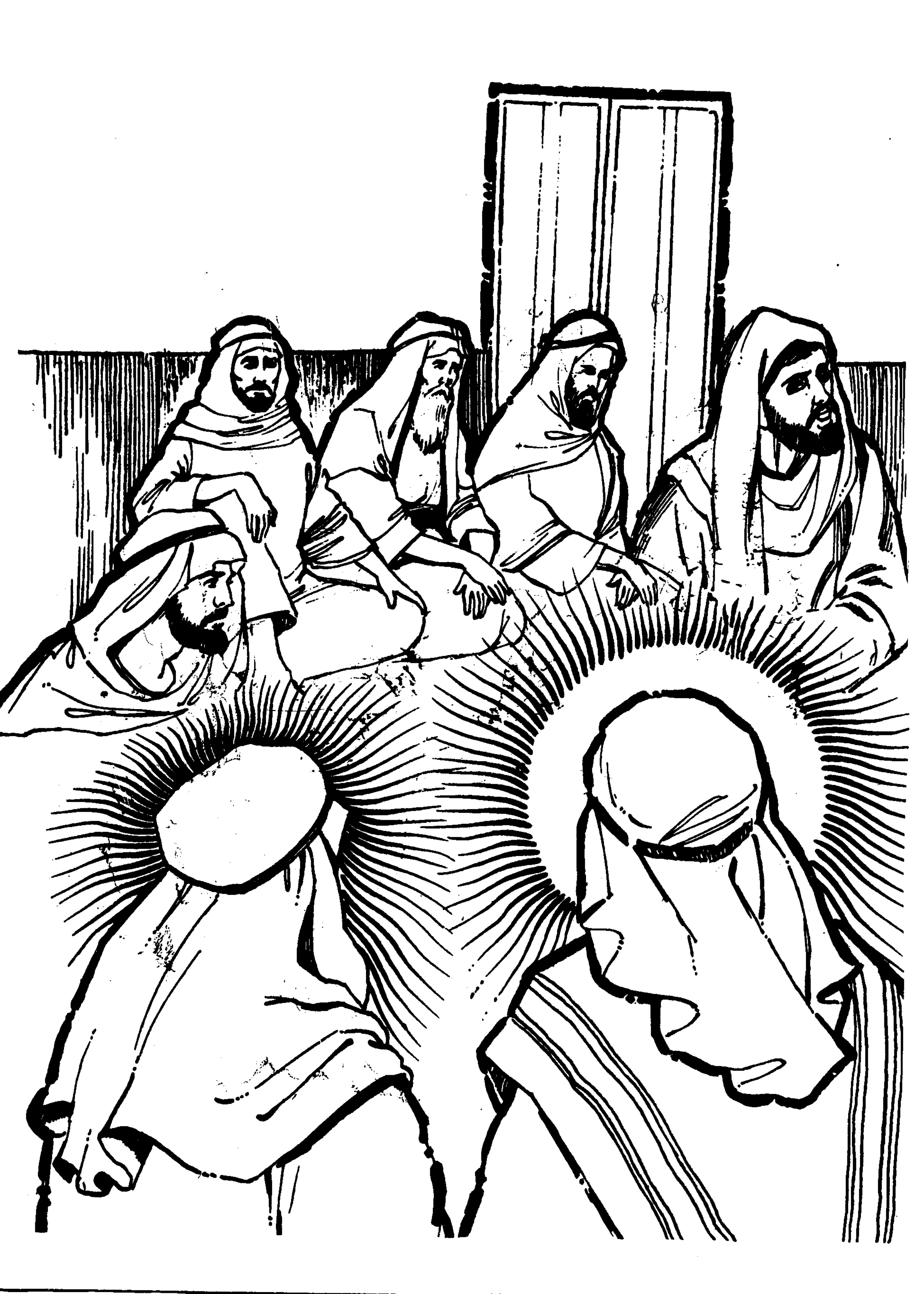

اِقْرَأْ
بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ..

واسِعَةً بِطُرُقِ وأُصـولِ التِّجارةِ، ثُمَّ مـا لَبِثَتْ أنْ أحَبَّتْ أخلاقَهُ وعِزَّةَ نفسِهِ، فَتَـزوَّجتْ منه، ووَضعتْ بينَ يـديهِ وفي تَصَرُّفِهِ، كامِلَ ثروتِها وأعمالِها. .

فقامَ (ص) مُستعيناً بِقوَّةِ شبابِهِ وإرادتِه، وما وَفَّرَتْـهَ له زَوجتُه من إمكانِيّاتٍ، قامَ بمساعدةِ المظلومين، ومَدَّ يدِ العَوْنِ إلى الفقراءِ المُستَضعَفين.

رُزِقَ (ص) من خـديجـةَ بستَّـةِ أبنـاء: وَلَـدينِ أسماهُما قاسماً وعبدَ الله، وقد توُفِّيا صغيرين قبل بعثَتِه (ص)، وأربـعِ بَنـاتٍ هُنَّ رُقَيَّـةُ وزينبُ وأُمُّ كُلثـومٍ وفـاطمةُ (ع). وكـانَ (ص) كثيرَ الصَّبـرِ عَظيمَ الجلَدِ، فلمْ يَبْدُرْ منه أيُّ إحساسٍ بالضَّعْفِ لِمـوتِ وَلديـه، بَلْ تَقَبَّلَ قضاءَ اللهِ وحُكْمَهُ بالرِّضى والإقرار.

كـانَ (ص) يَتَمتَّعُ بـاحترامٍ شَـديـدٍ بينَ النّـاسِ، وكـانوا يَـرجِعون إليـه لِيساعِـدَهُم في حَـلِّ مشـاكِلِهم، وكـانوا يَثِقـونَ بـهِ ويَعْتَمِـدونَ عليـه، وَيـوُدِعـونَ لـديـهِ أماناتِهِم، ولم تُعَرفْ عنهُ كِذْبةٌ واحِـدةٌ، لِأنَّهُ كـانَ رَجُلاً صادِقاً مُؤمِنـاً. ﴿وإنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَـظيمٍ﴾(القلم ـ ٤).



كانَ النّاسُ في تِلكَ الأيّامِ يَعبُدونَ الأَصْنامَ، بينما كـانَ هُوَ يَعبُـدُ اللهَ الواحِـدَ الأَحَـدَ، مِلَّةَ جَـدِّهِ إبـراهيمَ الخليـلِ (ع)، وكانَ يَقضي مُعْـظَمَ وقتِهِ يتَعَبَّـدُ في غارِ حِراءٍ، وهو غارٌ يقعُ على قِمَّـةِ جبلٍ في شَمـالِ مكَّة. وكـانَ يَذهبُ خِفْيَـةً إلى هنـاك، فيقضي شهـرَ رَمضـانَ بكامِلِهِ، يُصلّي ويعبُدُ رَبَّهُ ويناجيه.

البعثة :

في السـابـعِ والعشـرينَ من شهـرِ رجبٍ، وكــانَ (ص) كَعَهْـدِهِ دائمـاً مشغـولاً بِعبـادَتِـهِ في الغـارِ، وإذا بِجبرائيلَ ـ ملاكِ الرَّحْمانِ ـ يَظهرُ أَمامَـهُ، وما إنْ تَـطَلَّعَ إليهِ حتى بادَرَه قائلاً: ﴿اِقرأْ﴾!!. لكنَّ محمداً (ص)، والّـذي لم يكنْ قـد تلقّى أيَّ تعليمٍ ، وهــو لا يُحسِنُ القراءةَ أو الكتابَةَ، أجابَ مُتعَجِّبـاً: وماذا أَقـرأُ؟ فأنـا لا أُحسِنُ القِـراءةَ! قال جِبـرائيلُ مكَـرِّراً أَمرَهُ: «اِقْرأ!!» لكنَّهُ وللمرَّةِ الثّـانِيَةِ سمـعَ الرَّدَّ نفسَـه، وحين كَرَّرَ قـولَهُ للمـرَّةِ الثالِثَـةِ، أَحَسَّ محمدٌ (ص) أَنَّ بـاستطاعَتِـهِ أن يقرأَ. ﴿اِقرأْ باسْمِ ربِّكَ الّذي خَلَقَ﴾.

وهكـذا اخْتارَ اللهُ سبحـانَهُ محمـداً (ص) للنُّبـوَّةِ، وهو في سِنِّ الأَربعينَ، وكَلَّفَهُ بأن يَقومَ بِهدايَةِ النّاسِ، وإِخْـراجِهِم من الظُّلُمـاتِ والشِّرْكِ والجَهْـلِ الذي هم فيـه، إلى رِحابِ العِلمِ ونـورِ الإيمانِ، وأَنْ يُـرشِـدَهُم إلى طريقِ السَّعادةِ والفَلاحِ في الدُّنيا والآخِرَةِ.

﴿وَمـا أَرسلْنـاكَ إلاّ رَحمـةً لِلعـالَمين﴾(الأنبيـاء - ١٠٧).

نَزَلَ الرَّسولُ (ص) من الجبلِ مُضْطَرِباً وتوجَّه إلى بيتِـهِ، وهُناكَ كـانتْ أَوَّلُ امرأةٍ آمَنَتْ بـهِ، وهي زَوجتُـهُ خَديجةُ، وأَوَّلُ رجـلٍ مَدَّ يـدَهُ إليهِ بـالبَيْعَةِ، ابنُ عَمِّـهِ الفتى عليُّ بْنُ أَبي طـالـبٍ، الّـذي تـربّى فـي بيـتِ الرَّسولِ (ص) مُنذُ نُعومَةِ أَظْفارِهِ.

وأَنذرْ عشيرتَكَ الأَقْربينِ.

كـانَ النبيُّ (ص) حينَ يَقـومُ للصَّـلاةِ، يقفُ عليٌّ (ع) عنْ يَمينِهِ وتَقِفُ خَديجـةُ مِنْ وَرائِه، واسْتمـرَّ الأمرُ كذلكَ، حتّى أَمَرَ أبو طالبٍ وَلَدَه جعفرَ باتِّباعِ الرَّسولِ

(ص). ثم نَزَلَ إليهِ أَمرُ اللهِ تَعالى، بأنْ يقومَ بِدعوةِ أهلِهِ وعشيرَتِه الأقْرَبينَ إلى الإسلامِ ﴿وأَنْذِر عَشيرتَكَ الأقربين﴾ (الشُّعراء - ٢١٤).

فدعا (ص) إلى بيتِهِ ما يزيدُ على أربعينَ فَرداً منْ بني هاشمٍ، وبعدَ أنْ تناولوا الطَّعامَ، وقفَ بينَهم، وحَمِدَ اللهَ وأثنى عليهِ ثُمَّ قال: «يا بني عبدِ المطَّلب، إنّي واللهِ ما أَعلَمُ شاباً في العَربِ، جاءَ قومَهُ بِأَفضلَ ممّا جئتُكُمْ به، إنّي قد جِئتُكُم بِخيرِ الدُّنيا والآخِرةِ، وقد أمرني اللهُ تَعالى أن أدْعُوَكُم إليه، فَأَيُّكُم يُؤازِرُني على هذا الأَمرِ، على أن يكونَ أخي وَوَصِيّي وخَليفَتي فيكم؟».

ومِنْ بينِ الحُضورِ جميعِهِم، وقفَ عليٌّ (ع) وهو ما يزالُ ابنَ عشْرِ سَنواتٍ، وأَعلنَ اسْتعدادَهُ لِمُؤازرةِ الرَّسولِ (ص). كرَّرَ الرّسولُ (ص) قولَهُ ثَلاثَ مَرّاتٍ، وكانَ الوحيدُ الّذي اسْتجابَ لهُ في المّراتِ الثلاثِ هوُ عليٌّ (ع).

بقيَ الرَّسولُ (ص) يدعو إلى الإسلامِ سِرّاً، لِمُدَّةِ

ثلاثِ سنواتٍ، واسْتجابَ لِدعوةِ الإيمانِ عـددٌ قَليلٌ من النّاسِ.

في مُواجَهَةِ الشِّركِ.

في تلكَ الأيّامِ ، كانَ النّـاسُ يَفِدونَ إلى مكّـةَ من بـلادٍ وأمـاكنَ بَعيـدةٍ للحـجِّ ، وكـانـوا يُحضِـرون مَعَهم بضائِعَ يَحتاجُها أهلُ مكّةَ، فيَتَّجِـرون بها مَعَهُم، وكـانَ هذا العملُ مصدَرَ رِبحٍ وفيرٍ يَجْنيهِ أثرياءُ مكّةَ، والرِّبْح هو هَمُّهُم ومِحْوَرُ تَفكيرِهم.

كانَ الرسولُ (ص) يدعو النّاسَ إلى تـركِ العاداتِ السَّيِّئةِ، كالـزِّنـا وشُـربِ الخَمـرِ ووأْدِ البنـاتِ وقتلِهِمْ، وأكْـلِ مالِ اليتيمِ وأكْـلِ الميتَةِ وشَهـادةِ الزُّورِ، وغيـرِ ذلكَ من الفواحشِ . وكانَ يدعوهُم بالمقابلِ إلى الأمـرِ بـالمعـروفِ والإحسـانِ إلى الأرامـلِ واليَتـامى والمساكينِ، وصلةِ الرَّحِمِ وحُسْنِ الجِوارِ.

وكانَ (ص) يجلسُ إلى أُولئكَ الـزُّوّارِ القادمينَ من بَعيـدٍ، ويَتَحدَّثُ إليهم ؛ ، ويَنصَحُهمْ بِتـركِ عبـادةِ

الأَصنـامِ ، التي صَنَعَهـا الكُفّـارُ بِأَيديهِم مِن الخشَبِ والحجارةِ، ونَصبوها في المسجدِ الحرامِ فَوْقَ الكَعبةِ، يَنصَحُهم بتـركِ عبادَتِهـا لأَنَّهـا لا تنْفَعُهم ولا تَضُـرُّهُم. وأَنْ يتَّجِهوا بِالعبادةِ إلى الإلهِ الواحدِ، خالقِ كُلِّ شيءٍ.

كان أثرياءُ مكّةَ يَتَساءَلون: ماذا لواسْتَمعَ النّاسُ إلى مُحمَّدٍ وتركوا عبادةَ الأَصْنامِ ، إذنْ لانْقطَعَ قُدومُهم إلى مَكَّة، وانْقطَع معهم مَوْرِدُ رِزقِنا ومَصدُر أرباحِنا، لذلك شَـرعـوا في إعـلانِ الخِصـامِ الشَّـديـدِ لمحمَّـدٍ (ص) ولِتـابعيه من المسلمينَ الأوائـلِ ، ورغْمَ ذلك فقـد كانَ عـددُ المؤمنينَ يَزدادُ يـوماً عن يـوم، كما كـانت معاملةُ قُـريْشٍ له ولأَصْحـابِه، تَـزدادُ قسـوةً ووحشِيَّـةً. وكـانَ مشـركـو قُـريْشٍ يُنـزِلـونَ بـالمُسلمينَ الأذى والضَّـرَرَ، ويُـوجِّهونَ لَهُمْ السِّبـابَ والشَّتـائِمَ، كي يمنعـوا انْتِشـارَ الإسلامِ بينَ النّاسِ ، غير أنَّهم لم يَجرُؤوا على تـوجيهِ الأذى لجميـع المسلمين، لأنهم يَنتَسبـونَ الى قَبـائِـلَ عَديدةٍ، تَحسُبُ قُرَيْشٌ حسابَهـا، وأمامَ عجْـزِهِم ذاكَ، فقـد تَوجَّـهَ نَفَرٌ من أَعْيـانِهم إلى بيتِ أبي طـالبٍ، عَمَّ



الرّسولِ وحاميه، وسَيِّدِ بني هاشمٍ ، وشكَوا إليه أمْرَهم مَعَ مُحمّدٍ قائلين:

يا أَبا طالبِ! إنَّ ابْنَ أخيكَ محمداً قد عابَ آلِهتَنا، وسَفَّهَ أحلامَنا وَسَخِرَ منْ عقائِدِنا، واتَّهَم آباءَنا بالضَّلالِ ، ونحنُ على اسْتِعدادٍ لكي نُقَدِّمَ إليه كُلَّ ما يَطلُبُ، لو تَرَكَ هذا الأَمرَ، فإمّا أن تمنَعَه أنت، وإمّا أن تُسلِمَهُ إلينا فنرى فيهِ رأْيَنا.

قال أبو طالبٍ : سأتحدَّثُ إليهِ في هذا الأمرِ. وعندما نَقَلَ أبو طالبٍ أقوالَ قُريشٍ إلى النَّبيِ (ص) أجابَهُ: «واللهِ يا عَمّ، لو وَضعوا الشَّمسَ في يَميني، والقَمرَ في شِمالي، على أنْ أتركَ هذا الأَمرَ ما تركْتُهُ حتى يُظهِرَهُ اللهُ أوْ أَهْلِكَ دونَهُ». فلمّا سمعَ أبو طالبٍ مقالةَ النَّبيِّ (ص) وردَّهُ على العرضِ الذي تقدمتْ به قُريشٌ، أخذَ يدَه بِقوّةٍ وحَرارةٍ قائلاً: وَأنا أيضاً أُقسمُ باللهِ، أنّي لنْ أرفعَ يديَ عنكَ، فَسِرْ في طريقِكَ.

رأى كِبارُ قُريشٍ أنْ يلجأوا إلى الخديعةِ والمكْرِ، بعدَ أنْ رأَوْا فَشَلَ تخطيطِهم، فقالوا له: يا

أبـا طـالبٍ،إنَّ مُحمَّداً قـد شَتَّتَ جُموعَنا وسَخِرَ منّا ومِنْ أصنـامِنـا التّي نَحنُ لَهـا عـابِـدون، حتّى أَغْـرى بنــا غِلْمـانَنا، وشَجَّـعَهُم على العِصيـانِ والتَّمَرُّدِ، ونحنُ لا نرى تفسيراً لِسُلوكِهِ ولا نَدري ما هُوَ غَـرَضُه. فـإنْ كانَ فَقيراً أغنَيناه، وإن كانَ يُريدُ المُلكَ والجاهَ، أَمَّرناهُ عَلينا ولهُ مِنّـــا الطّاعةُ، وكلُّ ما نَـطلُبُه منـه، هو أنْ يتخلّى عن هذه الدَّعوةِ! ويتركَنا لحالِنا وأُمورِنا. لكنَّ الرَّسـولَ (ص) نـظر إلى عَمِّه وقـال: يا عَمّـاه، أنـا لا أُريـدُ من هؤلاءِ النّـاسِ شيئاً! ولا أطلُبُ منهم إلا أنْ يُؤمِنـوا باللهِ الواحدِ العظيم، ويَترُكـوا معبوداتِهم وأَصنـامَهم الحقيرةَ تلك، فـإنَّها لا تُغني عنهم شيئـاً. سمعَ رِجـالُ قُريشٍ جوابَ الرَّسولِ (ص) فامتلأُوا غَضَباً وغَيـظاً! وخَرجـوا وقد صمَّموا على أن يَستعملوا معَـهُ الشِّدَّة والقَسْوةَ منذُ ذلك اليوم.

عَقِبَ هـذه الحادثَـةِ، ضاعفَتْ قُـريشٌ من إيذائِهـا للرَّسـولِ، وتَعذيبِهـا لأصحابِـهِ، حتى أَنَّ بعضَ أقارِبِ النَّبيِّ (ص)، كـأبي لَهبٍ، غَدوا من أعـدى أعدائِـه.

فكانوا يَرمونَه بالأقـذارِ، ويَسخَرون مِنهُ ويُوَجِّهـونَ إليه السِّبَـابَ على مَـرأى من النّـاسِ ، حتى أَنَّهم اتَّهمَـوهُ بـالخَبَلِ والجُنـونِ. لكنَّهم كانـوا عبثاً يُحـاولـون، فلم يفوزوا من أَفعالِهم هذه بِطائلٍ ، وكم كانـوا يَتَمنَّوْنَ لـو يقتُلوه ويَتخلَّصـوا منـه، لـولا خـوفُهُم من عـزيمـةِ أبي طـالبٍ، وسيفِ حمزة، وانتقـامِ بني هـاشم. وكم من مَـرَّةٍ رسموا خُـطَطاً لقتلِه، لكنَّهم كلمـا حـاوَلـوا تنفيـذَ خُـطَطِهم الشِّريـرةِ، كانَ اللهُ سبحـانَهُ لهم بـالمِرصـادِ، فأَبطَلَ أَعمالَهم وسَفَّه أَحلامَهم.

أول شهادة في الإسلام.

كـانَ نصيبُ بعضِ المسلمينَ مِن الأذى قليـلاً، لِأَنَّهُم ينتمـونَ إلى قَبـائِـلَ كبيـرةٍ ومشهـورة، وكـانَ المشركونَ يَخافونَ من قبـائِلِهم تِلكَ، لكِّن أكثَر أَتبـاعِ الـدِّينِ الإسلاميِّ، كـانوا من الفقـراءِ المستَضْعَفين، أو مِن العبيـدِ الأرِقّاءِ، فكـانَ الأَذى الَّذي يَنـزِلُ بهم أقوى وأَشدَّ، كبلالٍ الحَبَشيِّ، وكانَ عبداً أسودَ البَشَرةِ، فقدْ طَرَحَهُ سَيِّـدُه فوقَ الأحجـارِ الملتهبةِ تحتَ شمسِ مكَّـة

الحارقَةِ، كما طُرُحَتْ فوقَ صدرِه صخورٌ كَبيرةُ الحجم، وتُرِكَ ساعاتٍ يُعاني من العَذابِ والحَرِّ، والجوعِ والعَطَشِ، كانوا يَطلُبونَ منه الإبْتعادَ عنْ محمَّدٍ ودَعْوتِه. لكنَّ جوابَ بلالٍ لهم كانَ قولَه.. أَحَد، أَحَد، اللهُ واحِدٌ. فَما كانَ من المُشركينَ أخيراً إلاّ أَنْ ربَطوه بِحبلٍ. وصاروا يَجُرّونَه في أزِقَّةِ مَكَّةَ، فوقَ الأحجارِ والرِّمالِ، لكنَّ بِلالاً كان مُسلِماً حَقّاً، ولم تكنْ شِدَّةُ العَذابِ إلا لِتزيدَهُ قُوَّةً وإيماناً.

كَما كانَ ياسِرُ وسُمَيَّةُ وابنُهُما عَمّار، من المُسلمينَ المستضْعَفين، المَحرومينَ مِمَّنْ يَحميهم ويَدفَعُ الأذى عَنهُم. لذلك فقد رأَوْا من العذابِ أَشُدَّه، أمّا ياسر وسُمَيَّةُ فقد قَضَيا شهيدينِ تحتَ التَّعذيبِ. وأَمّا عَمارُ، فقد قاوَمَهم حتى اقْتَرَبَ من الموتِ، بَعدَ أنْ رأى مصرَعَ أَبويه أمامَ عَيْنَيْه لكِنَّه لم يكنْ أبداً ليرتَدَّ عن شريعةِ الإسلام، وإنْ تَفَوَّهَ بكلمةِ الكُفرِ تَقِيَّةً تحتَ تأثيرِ العذاب. ﴿إلاّ من أُكرِه وقلبُهُ مُطمئنٌ بالإيمانِ﴾ (النحل ـ ١٠٦).

كان الرَّسولُ (ص) يرى هذه الألوانَ من العذابِ، تنزِلُ بأصحابِهِ وأَحبابِه، فيَتَفَطَّرُ لهم قلبُه العَطوف، ويألَمُ لِمُصابِهم، لكنَّهُ لم يكنْ يَملِكُ منْ عِلاجٍ إلاّ الصَّبرَ الجميل.

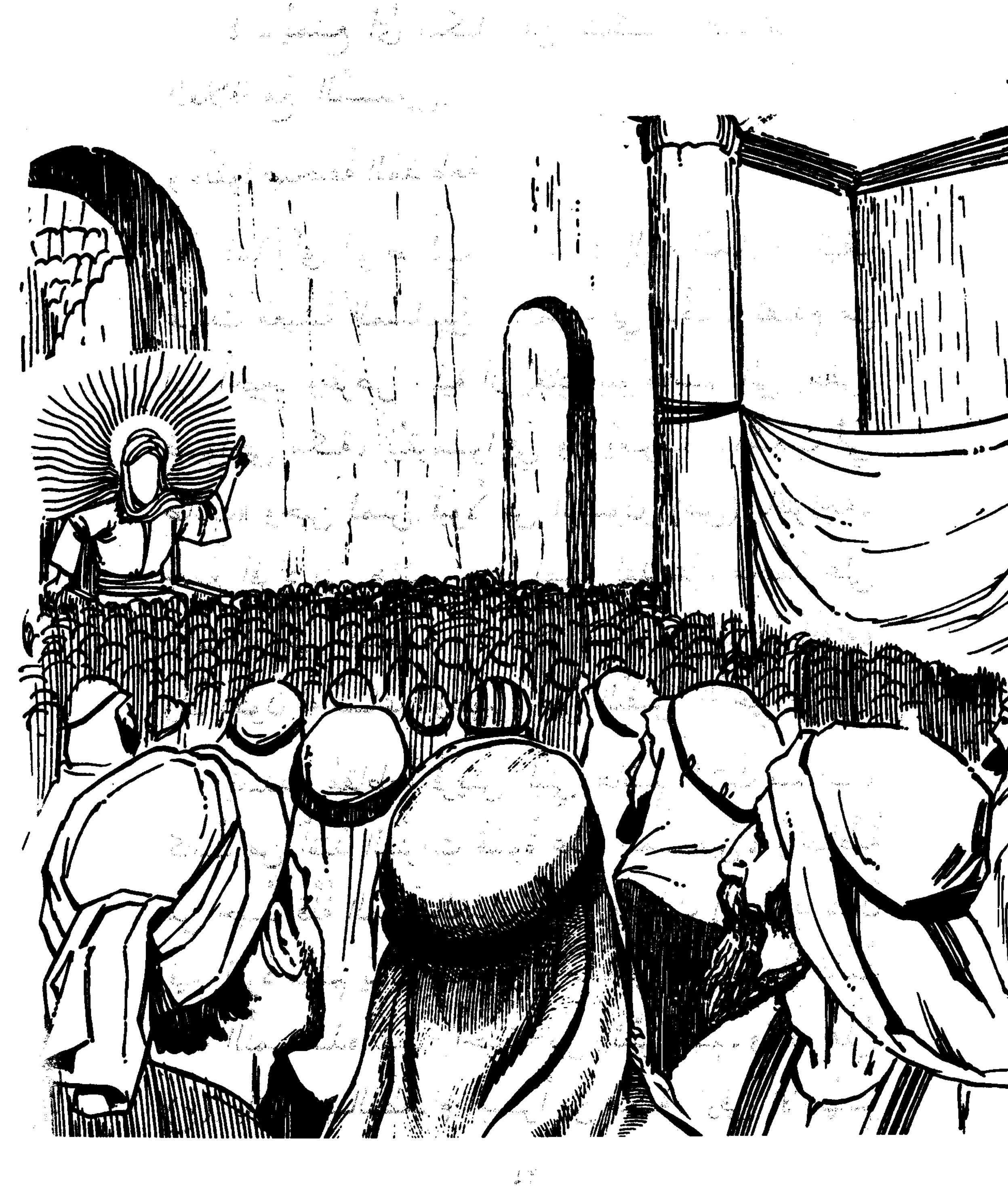
المقاطعة

أَحَسَّ مُشركو قُريشٍ أن خُطَطَهُم لم تصلْ إلى نتيجةٍ، ورأَوْا الخطرَ يَزدادُ عليهم بازْدِيادِ انْتشارِ الإسلامِ، فلجأوا إلى تدبيرٍ خسيسٍ، بَعيدٍ عن الإنسانِيَّةِ، وقرَّروا مُقاطعةَ المُسلمينَ، وفَرْضَ الحِصارِ الاقْتصادِيِّ عَليهم، وأصدَروا وثيقةً تَتَضَمَّنُ أربعَ نُقاطٍ للمقاطعةِ:

١ ـ منعُ الشِّراء والمبيعِ منَ المسلمين.

٢ ـ مناصرةُ خُصومِ محمدٍ، والالْتزامُ بها، واجبٌ في جميعِ النزاعات.

٣ ـ لا حَقَّ لأحدٍ في الزَّواجِ منِ المسلمين أو تزويجهم.



٤ ـ يُمنع أيُّ شكلٍ من أشكالِ التعاملِ أو العلاقةِ مَعَ المُسلمين.

وعلَّقوا صحيفةَ المُقاطعةِ هذه على الكعبةِ.

لما رأى أبو طالبٍ ما وصلتْ إليهِ الحالُ، وكيفَ غَدَتْ مَعيشةُ المسلمينَ مُستحيلةً في مَكَّةَ، تقدَّمَ من ابْنِ أخيهِ، وعَرَضَ عليه أن يُغادِرَ بَنو هاشِمٍ إلى بعضِ ضواحي مكة، لِيُقيموا في وادٍ يُعرَفُ بـ «شُعْب أبي طالبٍ» وحين لمسَ قَبولاً من الرَّسولِ (ص) باقتراحِه، جَمعَ أفرادَ بني هاشِمٍ وقالَ لهم: لقد عَزَمَ محمَّدٌ على الانْتِقالِ إلى الشُّعبِ، لذا فكُلٌّ منكُم مكَلفٌ بِمُرافقَتِه، وأنْ يكونَ له مُساعداً وظَهيراً حتى النَّفَسِ الأَخيرِ.

اِمتدتْ مُقاطعةُ قُريشٍ لبني هاشمٍ ثلاثَ سَنوات، كانتْ من أَشَدِّ الفَتَراتِ قَسْوةً على المسلمينَ، وخاصَّةً من حيثُ قِلَّةُ الموادِّ الغِذائيةِ التي وصلتْ إلى حَدٍ كانَ فيه الفَردُ منُهم يَنالُ حبَّةَ تَمرٍ واحدةً في اليوم، بلْ كانَتْ حبَّةُ التَّمرِ هذه تُقْسَمُ أَحياناً بين اثْنَيْنِ مِنْهُم، وكان عليٌّ (ع) يأتيهِم بالطَّعامِ سِرّاً من مكة. وفي الأَشهُرِ

الحُـرُمِ ، حينَ كان الأَمنُ يتـوَفَّر بِشكـلٍ أفضَلَ، كـانَ بعضُ فِتيانِ بني هاشِمٍ يَقصُدونَ مكَّةَ لتـأمينِ بعضِ ما يلزَمُهم من حـاجياتٍ، فكـانتْ قريشٌ تُحَـرِّضُ البـاعـةَ على رفعِ أسْعارِهِم، وكانَ أبو لَهَبٍ يَصيـحُ في أسواقِ مكَّةَ قائـلاً: أيُّها النـاسُ، ارْفعُوا منْ أَسعـارِكُم حتى لا يستـطيعَ المسلمـونَ شِراءَ مـا يَلزَمُهُم!! ما أشبَـهَ اليـومَ بالبارِحَـة، فَقُوى الاستكبـارِ اليومَ تعمـلُ جاهدةً على إدخـالِ المُسلمينَ في مَسالِكَ مُمـاثِلَةٍ، ولا يَـزالُ هُنـاكَ أُنـاسٌ مثـلُ أبي لَهبٍ، يَغتَنِمـونَ ظُـروفَ الحِصـارِ الاقْتِصادِيِّ، فيرفَعونَ أسعارَ بضـائِعِهم يومـاً عن يومٍ ، إنَّهم من أَمثـالِ أبي لَهبٍ، ومن السّائِـرينَ على درْبِهِ، وهمْ لَيْسـوا جَـديـرينَ بحـالٍ من الأحـوالِ أن يُدعَوْا بالمُؤْمِنين.

بعـد مُقاطعةٍ دامتْ ثلاثَ سَنـواتٍ دونَ طـائِـلٍ، وحينَ ثَبَتَ لِقُـريشٍ أنَّ الحصارَ الاقتصـاديَّ بـدورِه لم يـأْتِ بنتيجَـةٍ ، ولم يَفُتَّ من عـزيمَـةِ المُسلمينَ، بـل زادَهُم إيمانـاً، نَدِمَ بعضُ القُرشِيّينَ على مـا أقدَمَ عليـه

قَومُهُم، وبدأوا شَيْئاً فشيئاً يُخَفِّفونَ الحِصارَ، حتّى انْتَهى الأمرُ بِأنْ أَصْبَحَ المسْلمونَ أَحراراً في المجيءِ إلى مكَّة. واسْتَطاعوا أن يَعودوا ثانيةً إلى بيوتِهم، وكانَ ذلكَ بِمَعجِزَةٍ منَ اللهِ تَعالى، إذْ بَعَثَ الأَرَضَةَ (وهي حَشَرةٌ صَغيرةٌ تَقرِضُ الأخشابَ وغيرَها) إلى صحيفَةِ المُقاطعَةِ، فأكلَتْ كُلَّ ما كُتِبَ فيها من كَلِماتِ الظُّلمِ والمقاطعَةِ، وأبقتْ على غَيرِها من الكَلِماتِ، فلمّا رأى الناسُ ذلكَ، عَرفُوا أنَّ اللهَ سُبحانه لا يَقبَلُ بهذهِ المقاطعَةِ، فَمزَّقوا الصحيفةَ وأسْلَمَ عددٌ كبيرٌ منهم.

الهجرة

بعدَ زمنٍ قَصيرٍ فارقَ أبو طالبٍ عمُّ الرَّسولِ (ص)، وخديجةُ زوجتُه الحياةَ، واحداً إثرَ الآخَرِ، فكانَ لفَقْدِهِما أَسَوأُ الوقعِ والأَثَرِ على الرَّسولِ (ص)، وهما ظَهيراهُ وناصِراهُ، واشْتَدَّتْ بعدَ مَوْتِهما ضُغوطُ قُريشٍ على المسلمين، وبِخاصَّةٍ على رسولِ اللهِ (ص). فأَمَرَ المسلمينَ أن يُهاجِرَ مَنْ يُريد الهجرةَ منهم إلى الحَبشَةِ قائلاً: «إنَّ بِها (أي الحبشةَ) مَلِكاً لا

يُظلَمُ عنده أحَدٌ، وهيَ أرضُ صِدْقٍ». فهاجَرَ فريقٌ من المسلمينَ إلى الحَبشةِ بإمرَةِ ابْنِ عمِّ الرسولِ (ص) جعفر بنِ أبي طالِب (ع).

تآمرَتْ قُريشُ سِرّاً على قتلِ النبيِّ (ص)، وفي اللّيلةِ المُحدَّدَةِ، أخبرَ اللهُ تعالى نَبِيَّهُ بِمَكرِهِمْ، فأمَرَ (ص) عليّاً (ع) بالمبيتِ على فراشِه بعد أنْ أعلَمَهُ بِمكرِ قُريشٍ، سُرَّ عليٌّ عليه السّلامُ لأنَّهُ سيَفدي الرَّسولَ بنفسِه، ونامَ في فراشِهِ، وخرَجَ الرَّسولُ (ص) من بينِ المتآمرينَ دونَ أنْ يَروْهُ، ولمّا اقتحموا الدّارَ مُشْرعينَ سُيوفَهم، فوجِئوا بأنَّ شاغِلَ الفِراشِ هو عليٌّ، فَأُسْقِطَ في أيديهم، وملأَهُم الغيظُ دونَ أن يَستَطيعوا مواجهَةَ سيْفِ الإمامِ (ع)، أمّا الرَّسولُ (ص) فقد أَنجاهُ اللهُ من بينِ أيديهم وأحْبَطَ مكْرَهُم.

﴿ويَمْكُرونَ ويَمْكُرُ اللهُ واللهُ خَيْرُ الماكِرينَ﴾ (الأنفال ـ ٣٠).

كانت هِجرةُ الرَّسولِ (ص) إلى المدينَةِ المنوَّرةِ، ذاتَ أثَرٍ كبيرٍ وأهَمِّيةٍ فائِقَةٍ، حتى اعتُبِرَتْ سنةُ الهجرةِ

بِدايةً للتّاريخِ الإسلامِيِّ، وكانَ سُكّانُ المدينةِ ينتَظِرون قُدومَ الرَّسولِ إليهم بفارِغِ الصَّبرِ، وقد خَرَجوا لاستِقبالِهِ بالأهازيجِ والتَّحياتِ والصَّلَواتِ، وبينَ جماهيرَ قد ملأها الحَماسُ، دخَل عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ المدينةَ. وكانَ أوَّلُ عملٍ قامَ به هو أنَّهُ أمَرَ بِبناءِ مَسجدٍ، ليكونَ قاعدةً تنَطلِقُ منهُ دعوةُ الإسلامِ، وليكونَ مُنطلقاً لِوَحدةِ المُسلمينَ، وبِالتعاوُنِ والتَّكاتُفِ بينَ النّاسِ تَمَّتْ إقامةُ المسجدِ بمدةٍ قَصيرة، وبدأ المُسلمونَ يجتمعونَ فيهِ كلَّ يومٍ، ليستَمِعوا إلى تعاليمِ نَبِيِّهم وإرشاداتِه.

وكانَ العملَ الثّاني للرَّسولِ (ص) أنَّه آخى بينَ المُسلمينَ، وغَدا النّاسُ الذينَ كانوا بالأمسِ القريبَ يُشهِرون السُّيوفَ على بعضِهِم، غَدَوْا بفضلِ هذا النهجِ، وقد شَبكوا الأَيدي، ووقَفوا كُتلةً واحدةً لا يَشْغَلُهم سوى اليقظَةِ والتَّنَبُّهِ إلى أعدائِهم، أعْداءِ الإسلامِ. وقد تمَّ تشكيلَ مجموعاتٍ منهم لتعليم القرآنِ الكريم والأمرِ بالمعروفِ والنهيِ

عن المنكرِ ففريقٌ يجلسُ إلى النّاسِ يَتحدَّثُ إليهم، وفريقٌ يَتلَقّى تعاليمَ الإسلام وأُصولَه، وآخرونَ يَمْضون مع مُعاهِديهم من المسلمين.

وقعه بدر الكبرى

كانَ الإسلامُ بهذه الطَّريقِة يُحقِّقُ انتشاراً واسعاً يوماً بعد يومٍ، ويحقِّقُ المسلمونَ بالتالي مَزيداً من القُوَّةِ والقُدْرةِ، وقد تَجَلَّت هذه القدرةُ واتَّضَحَتْ تَحديداً في السَّنة الثانيةِ للهجرة، حيثُ استطاعُ جيشُ المُسلِمينَ أن يُلحِقَ بمشركي قُريشٍ هَزيمةً مُنكَرَةً، وذلك في وَقعةِ بدرٍ الكُبرى وقد اكتسَبَ المسلمونَ بعدَ هذه الوقْعةِ المزيدَ من المؤيدينَ والمُعاهدين، كما ازدادَ بالمُقابلِ إحساسُ زُعماءِ قُريشٍ بالخطَرِ، وقد كانوا بينَ فتْرةٍ وأُخرى يُجَهِّزونَ حملةً نحوَ المدينةِ، كي يُظهروا عجزَ الرَّسولِ وجَماعَتِه، بِكُلِّ طَريقةٍ مُمكنَةٍ. أمّا الآن، واللهُ سُبحانَهُ نَصيرٌ للمؤمنين، فلم تَعُدْ تنفعُ المشركينَ أعمالُهم، وغدا الظَّفَرُ والغَلَبَةُ حليفَيْن للمُسلمين في أكثرِ حُروبِهم مع المُشرِكينَ، لِما يُقدِّمُه

المؤمنون من تضحيةٍ وفِداء، وشيئاً فشيئاً انْعَدَمَتْ الجُرأةُ لدى قريشٍ على مواجَهةِ جُنودِ الإسلام.

صُلحُ الحُدَيْبِيَةِ

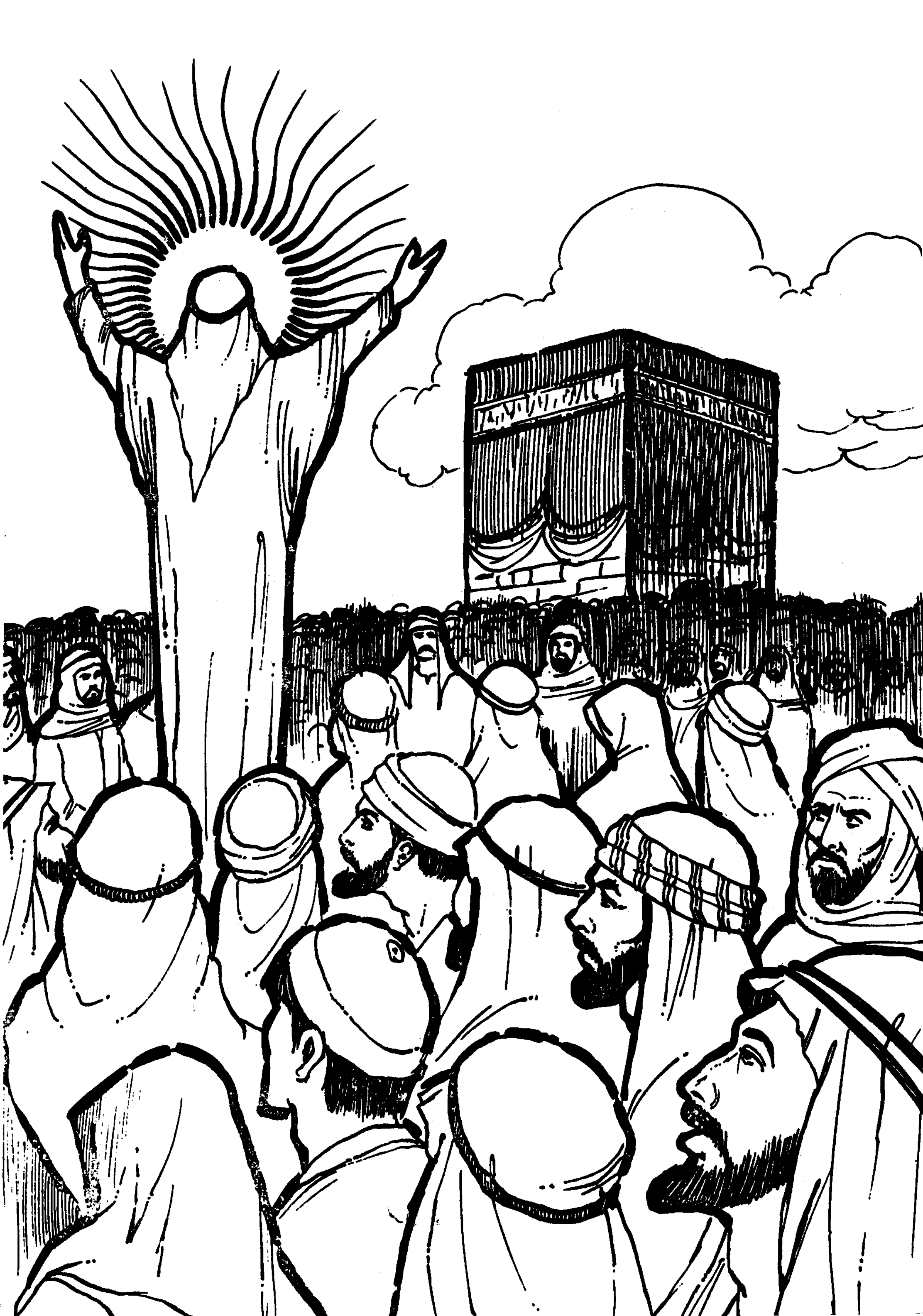
في السَّنةِ السادسةِ للهجرةِ قَرَّرَ النبيُّ (ص) أن يَتَوَجَّهَ بِصُحْبَةِ نفَرٍ من أَصحابه لزيارةِ بيتِ اللهِ الحرامِ في مكَّة، ولما علمتْ قُريشٌ بالأمرِ أرسلَتْ وفداً كي يَطْلُبَ منه أَنْ يُؤَجِّلَ زيارَتَه، وبعدَ مُحادثاتٍ مطوَّلَةٍ توَصَّل الرسولُ (ص) وممثلو قُريشٍ إلى اتِّفاقٍ تم توقيعُه وكان مما جاءَ فيه: تتوقَّفُ الحروبُ والمنازَعاتُ بين المسلمين وقريشٍ لمدةِ عشْرِ سنواتٍ، وللمسلمينَ الحقُّ بالحجِ وزيارةِ مكَّةَ والبقاءِ فيها ثلاثةَ أيّامٍ ، وذلك اعْتباراً من العامِ القادِمِ .

انْتشارُ الإسلام

وضع هذا الاتِّفاقُ حَدّاً لاعْتداءاتِ قريشٍ على المسلمين، وهيَّأَ فُرصَةً مُناسِبةً للرَّسولِ الكريمِ كي يقوَم بِنشْرِ الدَّعوةِ وتصديرِ الثَّورةِ الإسلامِيَّةِ إلى أقطارٍ

أُخـرى. فأرسَـلَ بَـرسـائـلَ إلى مُلوكِ وحكّامِ الأقـطارِ الكَبيـرةِ آنـذاك، يـدعـوهُم فيهـا إلى الإسـلامِ. ومِنْ أُولئِكَ الملوكِ خَسْروپَـرويز ملكُ إيـران، وكان شخصـاً مُتَكبِّـراً يملؤه الغُرور والصَّلف، فلمـا تلقّى كتابَ النبيِّ (ص)، كَبُرَ عليه أن يتجَرَّأَ محمدٌ ويكتبَ إليـه، قبلَ أن يُبادِرَهُ هو بـالكِتابَـةِ أوّلاً، وغَضِبَ غَضَباً شَـديداً! فمـزَّقَ الكتابَ حتّى قَبْلَ أنْ يقرَأَه، وأَمَر بـطردِ مَبعوثِ النَّبيِّ (ص) من قَصرِه، وقد أضمَرَ في نفسِه منذُ ذلكَ اليـومِ أنْ يَقتُلَ الرَّسولَ، لكنَّ الإلهَ الكبَير سُبحانَه، سُرعانَ ما هَيَّأَ لهذا المغرورِ المتعجرفِ جـزاءَهُ، فلم ينقَضِ وقتٌ طَويلٌ، حتى لَقِيَ حتفَه بيدِ ابنِه.

وصلت رسَـائِل النَّبيِّ (ص) واحـدةً بعـدَ الأُخـرى إلى بـلاد الـرّومِ ومِصْرَ وغيـرِهِمـا من البُلدان، فقـامَ بعضُ حُكّامِ تلكَ البلادِ بـالرَّدِّ على دَعـوةِ النَّبيِّ (ص) رَدّاً مُؤدَّبـاً لائِقاً، فـالنَّجاشِيُّ مَلِكُ الحَبَشـةِ، بعَثَ بِـرَدِّهِ إلى الـرّسـولِ (ص) بِكُلِّ احتـرامٍ وإعـزازٍ، وأَرفَقَ ردَّهُ بهـدايا اخْتـارَهـا خِصّيصاً، بَعَثَ بهـا مـعَ ابنٍ لـه إلى



رسولِ اللهِ (ص).

ومع انْتِشارِ العقيدةِ الإسلاميَّةِ في شَتّى المناطِقِ، اسْتجابَ الكَثيرونَ لِنداءِ الرَّسولِ (ص)، والتْحقوا بـه أَصحاباً وتابعين.

بعد انقضاءِ عـامٍ كامـلٍ على الإتِّفاقِ الّـذي أُبْرِمَ بينَ المسلمينَ وقريْشٍ، أصدرَ النَّبِيُّ (ص) أوامِـرَه بأنَ تَتَوجَّهَ قـوافلُ المسلمين نحـوَ مكَّة. ولم يَسْتـطعْ زُعماءُ قُـريشٍ أن يقِفوا في وجـوهِهم أو يمنَعوهُم من دخـولِ مكَّةَ، طِبقاً للاتِّفاقِ المعقودِ بينَ الطَّرفين، لكنَّهم أَمَروا سُكّـان مكةَ بِمُغـادرتِهـا والصُّعـودِ إلى الجبـالِ الواقِعَةِ حولَها. ودخلَ الرَّسـولُ (ص) مكة مُحـرِماً ومُلَبِّيـاً دعوةَ اللهِ تعـالى مَعَ أَلفين منْ أَصحـابِهِ، وطـافوا حـولَ بيتِ اللهِ، ثم اصْطَفّوا للصَّلاةِ والدُّعاءِ. وكانَ لهِذِهِ المناسِكِ الإسـلاميةِ الجليلةِ أكبـرُ الأثرِ في نفـوسِ أهلِ مكـة، حتى أَنَّ بعضَهم أظهـرَ علنـاً تَعَلُّقـه بـالـرَّسـولِ (ص) وشَـريعتهِ، الأمـرُ الـذي أغضَبَ زُعمـاءَ قُـريشٍ وسبَّبَ عـدمَ ارتياحِهم فـأصَـرّوا على ألاّ يَبقى المسلمـون في

مكَّـةَ ساعـةً واحدةً، زيـادةً على الأيّامِ الثـلاثةِ المتَّفَقِ عليها. تضايقَ بعضُ المُسلمينَ مِنْ تَصَرُّفِ قريشٍ ، لكنَّ الرسولَ (ص) والذي كان صـادقا وحـازماً في تنفيـذِ ما اتَّفَقَ عليـه مع مُعـاهـديـه، أَعـطى أوامِـرَه بـالتَّحـركِ. وبإحساسٍ غامرٍ بالظَّفَـرِ والارْتِياحِ ، تحـرَّكَ المُسلمونَ نَحـو المدينـةِ، فَقدْ اسْتـطاعـوا أن يَجْهَـروا بقـولِ «الله أكبرُ». «لا إلهَ إلاّ الله»، وأنْ يُسمِعوُا النّاسَ هـذا النداءَ العظيم، بعدَ أن كانوا عاجِزينَ طيلَةَ سَبْـعِ سنواتٍ حتّى عَنْ زِيارَةِ بيْتِ اللهِ.

فتح مكة

في السَّنــةِ الثـامِنَـةِ للهجـرةِ، نَشِبَ قِتـالٌ بينَ المُسلمينَ وجَيْشِ الرّومِ ، فخَسِرَ المُسلمـونَ المعركـةَ واضْطُرُّوا للتَّـراجُـعِ . وحينَ علمتْ قُـريشٌ بـانْكِسـارِ جيشِ المُسلمين، سَـوَّلَـتْ لهـم أَحـلامُهـم أنَّ قُـوَّةَ المسلمين قـد ضَعُفَتْ، وأَنَّ القضَـاءَ عليهِـم أصبَـحَ سَهـلاً، فنَقضوا لـذلـك عهـدَهُم، وهـاجمـوا قبيلةً من القبائلِ المُواليةِ للمسلمين، ووقَـعَ أفرادُهـا في أيديهم

بينَ قتيلٍ وأسَير، بينمَا اسْتطاعَ البعضُ النَّجاةَ بالفـرارِ، ونقَلوا خَبـر الهُجـومِ إلى رســولِ اللهِ (ص). إنْـزعَــجَ الـرَّسولُ لِنَقْضِ قُـريشٍ عهدَهـا. وتعهَّـدَ لهم بِتـأديبِ عَبَــدَةِ الأَصنـامِ المــارقين. عَمَّ القلقُ قُـريشــاً لِقـرارِ الـرَّسولِ (ص) وفَـوَّضَت جماعـةً، بالتَّـوَسُّطِ معَهُ على تَجديدِ العهـدِ السّابقِ، لكنَّ رجـاءَهُم هذا قـد رُفِضَ، وعـادَ رُسُلُهم منْ مَسعاهُم خـائِبين. وفي الوقتِ الـذي رآه الرَّسولُ (ص) مُلائِماً لِخُطَطِهِ، أَعَلَنَ التَّعْبِئَةَ العـامَّةَ في المدينةِ، وأَمَرَ بأنْ تُوضَعَ كافَّةُ مـداخِلِها ومخـارِجها تحتَ المراقبةِ، وأَنْ تُضْبَطَ تَحرُّكاتُ النّاسِ بِشدَّةٍ، كي يَحـولَ دونَ وُصـولِ أَنبـاءِ التعِبئَـةِ إلى قـريشٍ . وكـانَ (ص) يُـدرِكُ أنَّـهُ إنْ وُفّقَ المسلمـون في فتـحِ مكّــة، وإرغامِ العدُوِّ على نَزْعِ سلاحـِهِ، فإِنَّ كثيـراً منْ أعداءِ اليومِ ، يُصبحونَ مُسلمينَ غداً بتأثيـرِ تعاليمِ الإِسـلامِ السَّمْحَةِ، ولتحقيقِ ذلك يَجبُ إنجازُ هذا العملِ الكبيرِ دونَ إراقةِ دِماءٍ.

في العـاشِرِ منْ شهـرِ رمضانَ المُبـارِك. من السَّنةِ

الثامنةِ للهجرةِ، أَصدَرَ الرَّسولُ (ص) أوامَره بالتَّحرُّكِ، وَوَصلَ جُندُ الإِسلامِ إلى مكانٍ قَريبٍ من مَكَّةَ ليلاً، فأقاموا مُعَسكَرَهم هُناك، وأمرَ الرَّسولُ بنيرانَ كثيرةٍ فَأُضْرِمَتْ، وكانَ أبو سُفيانَ وَعددٌ من مُرافقيه خارِجَ مكَّةَ، وإذا بِهِ يُفاجَأُ بالنّيرانِ تَشِعُّ قربَ مكَّةَ، فأخذَه العجبُ والحَيْرَةُ، وَتَسمَّرَ في مكانِه مُندَهِشاً من كثرتِها. تَصادفَ في هذا الوقتِ مرورُ العبّاسِ عَمِّ الرّسولِ (ص) من هذا المكان، فرأى أبا سُفيانَ وناداهُ قائلاً: أيْ أبا سُفيان! أتُدهشُك هذه النيرانُ؟ إنَّها لجيشِ مُحمَّدٍ (ص)، وقد أقاموا ينتظَرونَ الصَّباحَ ليدخُلوا مكَّة، ولن يكونَ في طاقَةِ أحَدٍ صَدُّهُم عمّا اعْتزَموا.

ارتجَف أبو سُفيانَ لدى سَماعِهِ أقوالَ العبّاسِ، وراحَ يَرجوه أن يأخذَه معه إلى الرَّسول، ناسياً صَلَفَه وكِبرياءَه.

وبحضرةِ الرَّسولِ الأعظمِ (ص) تظاهَرَ أبو سُفيانَ بالإيمانِ، وأعلنَ إسلامَه، مُتأثِّراً مِمّا رآه من قُوَّةِ واقْتِدارِ جَيشِ المسلمين. في حينِ رأى الرَّسولُ الكريمُ (ص)

في اسْتسْلامِ أبي سُفيانَ دونَ إراقَةِ الدِّماءِ، خَيرَ خاتِمةٍ تَحمِلُ من الفوائـدِ الكثيرَ. وأصـدَرَ قرارَه قـائلاً: أَعْلِنْ عن لِسـاني لِأهْلِ مَكَّةَ ، أَنَّ كُلَّ من دخَـلَ المسجـدَ الحرامَ، أو دخَلَ بيتَه وأَغلَقَ بابَه، أو لجَأَ إلى بيتِ أَبي سُفيانَ، فهو آمن.

عـادَ أبو سُفيـانَ إلى مكةَ، ونقـلَ إلى النّاسِ فيهـا كُلَّ ما رأى وسَمِـعَ وهو يَـرتَجِفُ، فتَسارَعَ النّاسُ إلى الهَرَبِ دونَ تفكير، ولَجَـأَ كُلٌّ منهم إلى ملجـأٍ. وبِنداءِ اللهُ أكبـرُ، دخَـلَ جيشُ المُسلمينَ الـظافِـرُ مكَّـةَ، واتجهـوا شطرَ البيتِ الحـرامِ ، وتقدَّمَ الرَّسولُ (ص): على ناقتِهِ، تَحُفُّ به جموعُ المسلمينَ مَنْ كُـلِّ جانبٍ، لِأداءِ طـوافِهِ حـولَ بيتِ اللهِ. ولما لاحَظَ أهـلُ مكَّةَ أَنَّ الـرسولَ (ص) لا يلتَفِتُ إليهم، شَـرَعوا يَخـرُجون من بيُـوتِهم بحذرٍ، ويَتجمعـون قُـربَ المسجـدِ الحـرامِ ، وبعدَ أنْ انتهى (ص) من تَحطيمِ الأصنـامِ ، وقفَ عند بابِ الكعبةِ المشَرَّفَةِ، وبعـد أنْ حَمِدَ اللهَ وشكـرَهُ على فضلِهِ تَلا بعضاً من آيـاتِ القُرآنِ الكـريمِ ، ثم الْتَفَتَ

إلى عَبَدَةِ الأَصنامِ قائلاً: «ما تَظُنّونَ أَنّي فاعِلٌ بِكُم»؟ قالوا بصوتٍ تخنقُهُ العبراتُ ويَغلِبُ عليه الضَّعْفُ «أَخٌ كَريمٌ وابْنُ أخٍ كريمٍ»، لقد أسَأْنا إليكَ كثيراً يا مُحمَّد، ولم نَرَ منْكَ إلاّ الخيرَ، فأنتَ أخٌ كريمٌ عَطوفٌ، ونَطلُبُ منكَ العفوَ والْغُفرانَ.

قالَ النبيُّ (ص): إنكمْ لم تُعامِلوني بالحُسنى، كما يُعاملُ المرءُ ابنَ بَلَدِهِ، لقد اتَّهمْتموني بالكَذِبِ والجُنونِ، وأخرجْتُموني من داري وبَلَدي، ووقفْتُم مِنّي موقفَ الحربِ والخُصُومةِ.

إذهبوا فأنتمِ الطُّلقاء

بدأ عَبَدةَ الأصنام يرتَجفون لمّا سَمِعوا هذا الكلامَ، وجفَّت حُلوقُهُم وانْعقَدَتْ أَلسِنَتُهُم من الخوفِ، وأيَقنوا أنَّ يومَ الإنْتِقام قد أزِفَ، وأنَّهم سَيلْقَوْنَ جميعاً جَزاءَهم، ويشرَبونَ من نفس الكأسِ التي جَرّعوها للرَّسولِ وأصحابِه، أذىً وتَعذيباً وإذلالاً امْتَدَّ لِسنواتٍ.

أمّا الرَّسولُ الكريمُ، والذي لم يكنْ يُفكّرُ

بالانتقامِ من أَحَدٍ، بل كـانَ وحدَه بينَ هـذه الجموعِ ، يَتَطَلَّعُ إلى مُستقبلِ الإسلامِ وصَلاحِ أمرِ المسلمين، ! فقد تابَعَ يقول: أمّا ما يعودُ إليَّ، فإنّي سأَنسى الماضيَ وأَصفحُ عنكُم، «اِذهبوا فأنتُم الطُّلقاءُ».

لم يكن أحد من عبدة الأصنام، ينتظر أن يسمعَ ما سمِـعَ، وأَمـامَ هـذه العَظَمةِ والمحبَّـةِ والحِلْمِ ، فقـد غَمَرَهُم الإحساسُ بالخَجَلِ ، إلى جانِبِ الفرَحِ والغِبْطَةِ بعدَ أن أيَقنوا بالنَّجاةِ. وأَعلنَ أكثرُهم إسلامَهم.

بعـد أنْ أَقام النبيُّ (ص) في مكَّـةَ أيـامـاً، يُـرَتِّبُ أُمـورَها ويُنـظِّمُ شُؤونها، وبعَـد أنْ عَيَّنَ لإدارتِهـا رجـلاً يَمتازُ بالعقلِ والحزمِ ، قَفَلَ عائداً إلى المدينةِ.

بين المسلمين والروم

بعد فتح مكَّـة، أصبحَ الإسـلامُ قُوَّةً كبيـرةً، وحانَ وقتُ غُروبِ شَمسِ الطُّغيانِ، ومع انْتِشارِ الإسلامِ في الجزيرة العـربيَّةِ، وانتصـاراتِ المُسلمينَ المتواليـة في اليمنِ وحُنَيْنٍ وغيرِهِمـا ، خيَّم الـقلقُ عـلى قُــوى

الاسْتِكبـارِ، وكانَ الفُرسُ والرّومـانُ في تلكَ الأيّـامِ ، أكبـرَ دولتَيْن على وجْـهِ الأَرضِ ، وتحتَ تَصَـرُّفِ كُـلٍّ مِنْهما قُوَّةٌ نِظامِيَّةٌ كَبيرةٌ. كانَ الـرّومُ قد انْتَصَـروا حَديثـاً على الفرسِ ، وغَدَوْا أكثَر إحساساً بِقُوَّتِهم وجَبَروتِهم ، وإذا بِهِم يفـاجَؤونَ بِقـوَّةٍ أُخـرى تَقِفُ في وجـوهِهِم وتَتَحّداهُم ، ألا وهيَ قُوَّةُ الإِسلامِ .

كـانتْ قوى الـطّاغـوتِ تَخشى أكثَـر مـا تخشـاهُ، الحركاتِ الثَّوريَّةَ، وخاصَّةً ثورةَ الفِكْرِ، لـذا فقدْ صَمَّمَ المُستكِبـرون الرّومـانُ على القضاءِ على قُـوةِ الإِسلامِ الوليدةِ، وبِأَسرعَ ما يستطيعون .

وصلتْ أخبـارُ سيرِ جيشٍ للرومِ ، قِوامُهُ أربعـونَ ألفَ مُقاتلٍ ، إلى المُسلمينَ، وأنّـه بلغَ حـدودَ الشّـامِ وانْضمَّتْ إليـه بعضُ القبـائـلِ من سُكّـانِ الأطـرافِ، وصلَتْ هـذه الأخبارُ إلى المدينـةِ في وَقتٍ كانَ فيـه النّـاسُ يعانون من نُقصانِ الموادّ الغذائية، وهم لم ينجزوا بعدُ جَمعَ مَحاصيلِهم، لكنَّ رجالَ اللهِ يَعرفونَ أنَّ الذَّودَ عن حياضِ الإِسلامِ ، لا يَتقدَّمُ عليه أمـرٌ آخَرُ. فلم تَمضِ

أيّامٌ على صدور أوامِرِ الرَّسول (ص) بالاسْتِعدادِ، حتى تَحرَّكَ (ص) ووَراءَهُ ثلاثـون أَلفاً لم يكـونوا قَـد أكملوا اسْتِعـدادَهم بَعْدُ، في اتجـاهِ الجبَهةِ، بعـدَ أن تركَ عليّـاً (ع) في المدينةِ ليقومَ مَقامه في حمايتِها والدِّفـاعِ عنها قائلاً له: «أنتَ مِنّي بمنزلةِ هارونَ من مـوسى إلاّ أنه لا نَبيَّ بعدي» وحين وُصولِهم إلى المواقِع الأَماميَّةِ، قُربَ تَبـوكٍ، بعدَ أنْ تحمَّلوا المصـاعَب والمشاقَّ، لم يـرَوْا أثَـراً لِجُنْدِ الـرّومانِ، الذين كانوا قد تَقَهْقَـروا داخَل حُـدودِ بـلادِهم خـوفـاً من الهَـزيمـةِ امـامَ جُيـوشِ المسلمين الزّاحفةِ.

تـوقَّفَ الرسـولُ ومُقاتلوه هنـاكَ فتـرةً من الـوقتِ، وبعد توقيعِهِ عدداً منْ مُعاهداتِ الصـداقَةِ مـع القبائـلِ من سُكّـانِ الأطـرافِ، عـادَ مـع جيشِـهِ إلى المـدينـةِ، وكـانَتْ أخبارُ الفتـحِ قد سَبَقَتْهم إلى هُناكَ فتجَّمـع أهلُهـا لاسْتِقبالِهم. انْتَشَـرتْ أخبـارُ فِـرارِ الـرّومِ أَمـامَ جَيشِ المسلمينَ انْتِشـاراً سرَيعـاً واسعاً في كُـلِّ مكانٍ، وأَحَسَّتْ القَبائِلُ التي كـانَ الخـوفُ شـاغِلَهـا من قُوى

المستكبرينَ من الفُرسِ والرّومِ ، أنَّ لها ظهيراً جديـداً يُعتَمُـد على حِمايتـهِ. فـأبَـرمـوا مـع المسلمين العهـودَ والمَـواثيـقَ. وغـدتْ قُـوَّةُ الإِسـلامِ أخـطَرَ عـدوٍّ للمستكبرين، وأكبرَ ظَهيرٍ للمستَضْعَفين.

إنَّ صَرَخاتِ عمارِ بنِ ياسرٍ تحتَ التَّعذيبِ، وأنينَ بِـلالٍ الحبشيِّ فوقَ صُخـورِ الصَّحـراءِ الملتهبـةِ، ودَمَ حمزَةَ الزَّكيَّ يسيلُ على أرضِ أُحُدٍ، ودِماءَ المئاتِ من الشُّهداءِ التي امْتزَجَت مع بعضِها، قَدْ آتَتْ كُلُّها ثِمارَها الآن، فـأمثالُ عمـارٍ في هـذا الكـونِ فـازوا بـالنَّجـاةِ، وأمثالُ بِلالٍ قد وُهِبوا الخلاصَ من رِبقَةِ الأَسْرِ، والدَّمُ الطّاهرُ وثورةُ الشُّهداءِ المستمـرَّةُ عَبْرَ التـاريخ ، فَجَّـرَتْ الدَّمَ يجري في شَرايينِ أَبطالِ الإِسلام.

يأَيُّها الرسولَ بَلِّغْ ما أُنزِلَ إليك من رَبِّك.

في السَّنةِ العاشرةِ للهجرةِ، أتى أمْرُ اللهِ تعالى إلى رسولِهِ (ص) بأن يذهَبَ للحجِّ هذا العامَ، ويُعلِنَ ذلك لسـائِرِ المسلمين. واسْتِجـابَـةً لـدعـوتـه (ص) تحـرَّكَ

الآلافُ من كُلِّ فَجٍّ، متَّجهين نحوَ مكَّةَ، لِيُؤَدّوا مَناسِكَ الحجِّ بِصُحْبَةِ رسولِ الله (ص). وكانتْ مَناسِكُ الحجِّ لهذا العامِ قد بلغَتْ الغايةَ في الجلالِ، ولما انْتَهتْ وعزَمَ النّاسُ على التَّوَجُّهِ إلى مَواطِنِهم، وقَبْلَ أنْ يتفرَّقوا كلٌّ إلى وِجهتِه، أمَرَ الرسولُ (ص) النّاسَ بالتَّوقُّفِ في مكانٍ يُدعى «غديرَ خُمّ»، ثم اعْتلى مُكاناً عالِياً هُيِّئَ له. وشرعَ يتحدثُ إليهم بأعلى صوتِه بعدَ أن حَمِدَ الله تعالى وأثنى عليهِ بقولِهِ: أيُّها النّاسُ، لقد دُعيتُ وسَأُلبّي قريباً. ونزولاً عندَ أمرِ اللهِ سُبحانَه أوصيكُم فاستَمِعوا، أيُّها الناسُ! إنّي راحلٌ من بَينِكم، وتاركٌ لكم وَديعتين ثَمينتيْن، إحداهُما القرآنُ كتابُ اللهِ، والثّانيةُ أهلُ بَيْتي، واعلموا أنَّهما لن يفترقا حتى يومِ الدّينِ. ثم أخَذَ بيدِ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ(ع) ورَفَعها قائلاً: «مَنْ كُنتُ مَولاهُ فهذا عَليٌّ مَولاهُ، اللّهُمَّ والِ منْ والاهُ، وعادِ منْ عاداهُ».

اِستَمعَ كلُّ منْ كانَ حاضراً إلى بَلاغِ الرَّسولِ ووَصاياهُ، وبايَعوا عليّاً كَخَليفةٍ لِرسولِ اللهِ (ص). لكنَّ

ضِعافَ الإيمانِ سُرعانَ ما يَتناسَوْنَ، وسُرعانَ ما يبتَعِدونَ عن سبيلِ اللهِ سبحانَه، ويَلْتَحِقونَ بِرَكْبِ الشَّيطانِ.

الساعات الأخيرة

مَرِضَ رسولُ اللهِ (ص) بعد رُجوعِهِ إلى المدينةِ بِقليلٍ ، وكانتْ شؤونُ أُمَّتِهِ شُغْلَهُ الشّاغِلَ، حتّى وهو على فراشِ المرضِ ، كانَ لا يَدعُ فُرصةً تمر دونَ أن يُزَوِّدَ النّاسَ بموعِظَةٍ، أو يُقدِّمَ لهم نَصيحةً، كان عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يريد أن تكون تكاليفُ المسلمينَ بعد وَفاتِه واضحةً جَليةً. أما أولئكَ الذين كانت تَشْغَلُهم المناصُب والمقاماتُ الرَّفيعةُ، فكانوا يَحولونَ دونَ تحقيقِ ذلك، أَجَلْ! فإنَّ رسولَنا الكريمَ قد عانى الكثيرَ من قسوةِ أصحابِ الغاياتِ وعبيدِ المَناصِبِ ، حتى في آخِرِ لَحَظاتِ حياتِهِ الكَريمةِ. وفي حينِ كانَ عليٌّ وفاطمةُ وغيرُهُم من التابِعين الأَوْفياءِ، يجلِسونَ قربَ وِسادةِ الرَّسولِ الكريمِ ، يَذْرِفونَ الدموعَ حُزناً عليه، كان جَماعةٌ آخَرون يَضعون الخُطَطَ، ويَتوسَّلون شتّى

أنواعِ المكْرِ والخِداعِ ، وهمْ ينتظرون وفاةَ النبيِّ (ص) حتى يُطْبِقوا بأيديهم على الخُبزِ والماءِ والمنصِبِ. إنهم أنفسُهَم أولئك الّذين سابقوا الآخرينَ يومَ «غديرِ خُمٍّ» كي يُبارِكوا لعلِيٍّ بِخِلافَةِ رسَولِ الله، وقد رأينا كيف نَجَحوا في مَسْعاهُم. واسَتطاعوا أن يَخدعوا البسطاءَ من النّاسِ بألسِنَتِهم، ويَغْسِلوا أدمِغَتَهُم، فينْسَوا كلَّ ما قالهُ رسولُ اللهِ (ص) في غديرِ خُمٍّ، وما قَدَّمَهُ من مَواعِظَ ونَصائِحَ، إنْ في المسجِدِ أو على فراشِ المرَضِ، ينسونَ كلَّ هذا، ويستمعونَ إلى نَفَرٍ مالوا إلى الدُّنيا وباعوا أنفُسَهم للشَّيطانِ، حتى أنَّهم لم يتورَّعوا عن كَسْرِ ضِلعِ فاطمةَ عليها السَّلام، بِضعةِ الرَّسولِ (ص)، وجَعَلوا أميرَ المؤمنينَ علياً (ع) يُقيم في بيتِه سنواتٍ لا يَبْرَحُهُ، ومهَّدوا لمملكَةِ قُريشٍ ومعاويةَ ويزيدَ واليَزيديّينَ.

مضت أيّامٌ، والمدينةُ يَلُفُّها القَلقُ، ويَعُمُّها الحزنُ والأسى. كانَ العَديدُ منْ أَهلِها يتجَّمعونَ حول بيتِ النبيِّ (ص) يَذرِفونَ الدُّموعَ، ويَدعونَ الله ليلاً ونَهاراً،

يَـرْجونَ لِنَبيِّهم السَّـلامةَ. كـان كُلُّ شيءٍ يُشيـر إلى أنَّ حادثاً جَلَلاً سَيَقَـعُ. وأخيراً، ففي يـومِ الإثنينِ الثـامِنِ والعشـرينَ من صَفَـر، أَسْلَم النبيُّ (ص) الـرّوحَ إلى خالقِ الرُّوحِ، حينَ كانَ مُسنِداً رأسَهَ الكريمَ إلى صدرِ ابنِ عمِّـه ووليِّ عهـده عليٍّ (ع)، وتمَّ دفـنُ جَسـدِه الطّاهِرِ في اليومِ التّالي بيدِ عليٍّ (ع).

رحَلَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وما زِلْنا بعد قُرونٍ منْ رحيلِهِ نسمَعُ تَردادَ نِدائِهِ إذْ يقـول: «إنّي تاركٌ فيكُم مـا إنْ تَمسَّكْتُم بـهِ لَنْ تَضِلّوا بعـدي، الثَّقلين. كتـابَ اللهِ وعِتْرتي أهلَ بَيْتي». صدقَ رسولُ اللهِ.

يـا رب! اِمنَحْنـا القُـدرةَ والتَّـوفيقَ، حتى نَعْمَـلَ بِـوَصِيَّةِ رَسـولِكَ العـظيمِ، وأوامِـرِ قُـرآنِـكَ الكَـريمِ، فنكـونَ على خُـطا الأَصحـابِ المنتَجَبين، من أَنصـارِ ومَواليِّ رَسولِكَ وأهلِ بيتِهِ.

آمين يا ربَّ العالَمين